بحث محكم

العائد الحضاري والمعرفي في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم

عند محمد شحرور

الحسن حما
باحث مغربي



قسم الدراسات الدينية

تمهيد:

يشكل سؤال المنهج العنوان الأبرز والأهم في الدراسات الإسلامية المعاصرة، وتبرز أهميته بالخصوص في مقاربة نصوص الوحي قرآناً وسنة، سواء من حيث فهمها أو العلاقة بينها، أو محاولة استنطاق المضمون الدلالي لها عبر المدخل اللغوي، انطلاقاً من توظيف مناهج جديدة. وركزت الدراسة في مجال اللسانيات المعاصرة (linguistiques modern) على مسألة الترادف اللغوي، التي ترتكز على فكرة "أنه لا بد لكل مفهوم ذهني مما يقابله في الوجود المادي"، التي تتداخل مع المادية التاريخية كنظرية قادرة لوحدها على قراءة التراث بطريقة حداثية، تستوعب حركة التاريخ وقيمه النسبية ومطابقتها للقرآن الكريم، والتي لا يمكن إبرازها، بحسب الحداثيين، إلا من خلال فهم كيفية طرائق اشتغال الفكر الديني المرتبط بالبنية الأسطورية للقرآن، الذي اختلطت به الحوادثُ التاريخيةُ الجزئيةُ والحكاياتُ الشعبيةُ والأساطير القديمةُ، على شاكلة العهد القديم والجديد. وبهذا يكون مقصدُ جل هذه المناهج محاولة إخضاع كل ما ورد في القرآن إلى منطق الحس والتجربة، وبما أن الواقع المعاصر للأمة يستوجب على الباحث العلمي المعاصر -لاسيما في العلوم الإنسانية- أن يتعامل بشكل أو بآخر مع النص القرآني كمحطة علمية يفرضها الاختصاص الدقيق، فلم تعد دراسة القرآن وتفسيره مجرد اختصاص ضيق يسلكه الدارسون للشريعة فقط، ومن خلال تخصصات أدق، إنما فرضت المعرفة الحديثة فضاءً مفتوحاً بين جميع أشكال المعرفة والقرآن.

وقد تنازعت هذا الفضاء تيارات تراوحت بين الارتجال والسطحية في التعامل مع النص القرآني، وبين الإيغال في التدقيق التخصصي، وبين هذين البعدين تفاوتت مقاربات النص في العمق، مما جعل سؤال المنهج في التعامل مع القرآن سؤالاً مركزياً في سياق أسئلة أعم تتعلق بالتعامل مع الدين والتراث، والبحث عن وسطية أصبحت هي الأخرى موضع تجاذبات جديدة.

ومن التعدد المنهجي الذي عرفته الحضارة الغربية ونقلت إلى المجال التداولي العربي والإسلامي، بفعل الاستلاب الثقافي والهيمنة الفكرية التي افرزها الفارق الحضاري بين المنظومتين، ومحاولةً لتجاوز التخلف واللحاق بالركب الحضاري، سعى بعض الدارسين في الفكر الإسلامي المعاصر إلى استمداد بعضٍ من هذه المناهج، ليتم توظيفها في الدارسات القرآنية المعاصرة.

ويعتبر المهندس (محمد شحرور) واحداً من الدارسين المهتمين بتوظيف المناهج المعاصرة في دراسته للمفردة القرآنية، وبشكل أساسي الجانب اللغوي واللساني (الألسنة، البنيوية Structuralism، التفكيك) وقدم رؤيته في مجموعة كتب وأبحاث، أولها "الكتاب والقرآن قراءة معاصرة" نشر سنة 1990م، ثم "الدولة والمجتمع" عام 1994م، و"الإسلام والإيمان (منظومة القيم)" عام 1996م، ثم كتاب "نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي" في عام 2000م، ثم "تجفيف منابع الإرهاب" سنة 2008م.

ويشكل كتابه الموسوم {ب} «الكتاب و القرآن قراءة معاصرة» – والذي نخصصه لهذا البحث – مثار نقاش وجدل بين الباحثين والدارسين[1]، ويعد الكتاب محاولة جادة في طريق البحث عن طريقة معاصرة في فهم التنزيل الحكيم، أراد من خلاله صاحبه حل مشكلة الجمود التي سيطرت على الفكر الإسلامي لعدة قرون، مستدلاً بكون معنى النص متغير حسب الأحوال النفسية للمتلقي، والمتغيرات الثقافية والاجتماعية والظروف البيئية[2].

واستعرض الدكتور في بداية كتابه منهجه الذي أقام كتابه عليه، وهو اعتماد المنهج اللغوي في تحديد معاني الألفاظ، والقول بعدم وجود الترادف في اللغة مستنداً على نظرية (أبي علي الفارسي)، والمتمثلة في منهج الإماميين (ابن جني وعبد القاهر الجرجاني)، مستنداً إلى الشعر الجاهلي.

ونحاول في هذا البحث تقديم قراءة نقدية في الأسس المنهجية والمعرفية التي يعتمدها المهندس محمد شحرور في دراسته للنص القرآني، لكشف الخلل المنهجي في دراسته للمفاهيم القرآنية، وهو ما يقودنا إلى مساءلة أفق توظيف هذه المناهج في النص القرآني، عبر البحث في عدد من الإشكالات المرتبطة بالدراسة منها:

١. ما هي الأطر المعرفية والمنهجية المؤطرة لدراسة محمد شحرور حول المفردة القرآنية؟
٢. إلى أي مدىً نستطيع فهم دلالة المفردة القرآنية بالمناهج اللغوية والألسنية المعاصرة؟

---

١ . نذكر حصراً بحثاً لمحمد سعيد رمضان البوطي، في مجلة نهج الإسلام، عدد ٤٢، ك ١، ١٩٩٠م، تحت عنوان: «الخلفية اليهودية لشعار قراءة معاصرة». ٢ – شوقي أبو خليل، في مقالته: «تقاطعات خطرة في درب القراءات المعاصرة» التي نشرت كذلك في نهج الإسلام، عدد ٤٣، عام ١٩٩١م، ٣ـ نصر حامد أبو زيد، في مجلة الهلال، العدد ١٠، عام ١٩٩١م. تحت عنوان: «لماذا طغت التلفيقية على كثير من مشروعات تجديد الإسلام؟»، ومقالة أخرى تحت عنوان: «المنهج النفعي في فهم النصوص الدينية» في نفس المجلة، العدد ٣، عام ١٩٩٢م، –٤ ماهر المنجّد، في كتابه:«الإشكالية المنهجية في الكتاب والقرآن: دراسة نقدية» دار الفكر بدمشق، عام ١٩٩٤م.

٢ ٢. يقول المؤلف في ذلك "التشريع الإسلامي؛ هو تشريع مدني إنساني حنفي متطور يتناسب مع رغبات الناس ودرجات تطورهم التاريخي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ويقرأ بأعراف الناس.." الكتاب والقرآن، ص ٥٨٠.

٣. ما هو العائد المعرفي والحضاري من خلال تطبيق هذه المناهج في الدراسات القرآنية؟

أسئلة تطرحها المداخلة سعياً لإعطاء مقاربة معرفية منهجية في هذا الموضوع، وذلك من خلال ثلاثة مباحث بعد هذا التمهيد وهي:

» المبحث الأول: المهندس محمد شحرور، السيرة والمنهج
» المبحث الثاني: الأطر المرجعية والآليات المنهجية التفسيرية في دراسة محمد شحرور
» المبحث الثالث: المآلات المعرفية والعائد الحضاري من خلال تطبيق منهج شحرور
» خاتمة:

المهندس محمد شحرور السيرة والمنهج

محمد شحرور الحسن الحما



(ا). نبذة عين حياته وسيرته العلمية:

وقبل الشروع في دراسة ومناقشة شحرور في أفكاره نقدم نبذة مختصرة عن حياته وسيرته الذاتية،بما يخدم البحث وينسجم مع موضوعاته.3

محمد شحرور بن ديب، ولد في دمشق / سورية في ١٩٣٨/٤/١١م، درس المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية في مدارس دمشق، وحاز على الشهادة الثانوية من مدرسة عبد الرحمن الكواكبي بدمشق عام ١٩٥٧

ثم سافر في بعثة حكومية إلى الاتحاد السوفييتي في مارس (آذار) عام ١٩٥٨ لدراسة الهندسة المدنية في موسكو عام ١٩٥٩م. وخلال ذلك تحمل عدة مسؤوليات وحصل على العديد من الشواهد والجوائز:

» حاز على شهادة الدبلوم في الهندسة المدنية عام ١٩٦٤م.
» عين معيداً في كلية الهندسة المدنية في جامعة دمشق عام ١٩٦٥م.

أوفدته جامعة دمشق إلى جمهورية إيرلندا (Irlande) الجامعة القومية الإيرلندية، لتحضير شهادتي الماجستير والدكتوراه في الهندسة المدنية اختصاص (ميكانيك تربة وأساسات).

» حاز على شهادة الماجستير في الهندسة المدنية من الجامعة المذكورة عام ١٩٦٩، وعلى شهادة الدكتوراه عام ١٩٧٢م.
» عين مدرساً في كلية الهندسة المدنية في جامعة دمشق ١٩٧٢م.

---

٣ .أورد هذه السيرة في كتابه "الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة" طبعة دار الأهالي، دمشق: ١٩٩٢م، نقلا عن الشريجي يوسف محمد، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، سنة ٢٠٠٧م، العدد الأول، المجلد ٢٣، ص ٥٢٤/٥٢٥.

- حاز على استيداع من جامعة دمشق عام ١٩٨٢-١٩٨٣م، وسافر إلى السعودية وعمل خبيراً في اختصاصه في شركة دراسات (سعود كونسلت).
- افتتح مكتباً هندسياً خاصاً مع بعض زملائه في الكلية عام ١٩٧٢م، بالإضافة إلى التدريس في الجامعة.
- يتقن اللغتين الإنكليزية والروسية، وهوايته الخاصة (الفلسفة وفقه اللغة).
- كتب عدة مؤلفات في الهندسة المدنية نشرت في دمشق (هندسة الأساسات، ثلاثة أجزاء) و(هندسة التربة، جزء واحد).

وفي المقدمة يشير إلى أنه تأثر تأثراً كبيراً بالدكتور جعفر دك الباب، الذي يعده أستاذه في اللغة العربية، وقد ساعده كما يقول في صياغة الفصل الأول من الباب الثاني حول "قوانين الجدل العام".

من هذا المنطلق يتبين لنا أن صاحب الكتاب ليس مختصاً في الشريعة الإسلامية، أو اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وإنما هو أستاذ في الهندسة المدنية، وهوايته كما يقول "الفلسفة وفقه اللغة". هذه السيرة تبين لنا حظ الباحث من اللغة العربية، فهو ليس متخصصاً بالقدر الذي يسمح له بالحسم في الإشكالات اللغوية، التي صاحبت اللغة وخاض فيها علماء اللغة، كما هو الأمر في قضية هل اللغة توقيفية أم وضعية.

٢). المنهج المعتمد:

اعتمد شحرور في دراسته الخطوات المنهجية الآتية:

- مصدر المعرفة الإنسانية هو العالم المادي خارج الذات الإنسانية، فالمعرفة الحقيقية ليست مجرد صور ذهنية بل تقابلها أشياء في الواقع، لأن وجود الأشياء خارج الوعي هو عين حقيقتها.

- بما أن المعرفة تأتي من خارج الذات الإنسانية فإنه ينبغي الدعوة إلى فلسفة إسلامية معاصرة، تعتمد المعرفة العقلية التي تنطلق من المحسوسات عن طريق الحواس وعلى رأسها (السمع والبصر)، لتبلغ المعرفة النظرية المجردة، في ضوء المنجزات العلمية التي بلغتها الإنسانية في بداية القرن الخامس عشر الهجري، ويدعو المؤلف إلى رفض جميع المعارف الإشراقية الإلهامية الخاصة بأهل العرفان وأهل الكشف ونحو ذلك.

- الكون مادي والعقل الإنساني قادر على إدراكه ومعرفته، ولا توجد حدود يتوقف العقل عندها، وتتصف المعرفة الإنسانية بالتواصل، وترتبط بدرجة التطور التي بلغتها العلوم في عصر من العصور، وكل ما في الكون مادي.

- بدأت المعرفة الإنسانية بالتفكير المشخص المحدد بحاستي السمع والبصر، وارتقت ببلوغها التفكير المجرد العام، وعليه فإن عالم الشهادة وعالم الغيب ماديان، وتاريخ تقدم المعارف الإنسانية والعلوم، هو توسع مستمر لما يدخل في عالم الشهادة، وتقلص مستمر لما يدخل

في عالم الغيب، وبهذا المعنى يظهر بأن عالم الغيب هو عالم مادي ولكنه غاب عن إدراكنا حتى الآن، لأن درجة تطور العلوم لم تبلغ مرحلة تمكن من معرفته.

» لا يوجد تناقض بين ما جاء في القرآن الكريم وبين الفلسفة التي تعد أم العلوم، وتنحصر بفئة الراسخين في العلم مهمة تأويل القرآن طبقاً لما أدى إليه البرهان العلمي وذلك وفق التأويل في اللسان العربي.

» تبني نظرية الانفجار، القائلة بأن ظهور الكون المادي كان نتيجة انفجار هائل، أدى إلى تغير طبيعة المادة، وهذه الأطروحة ستكون لها انعكاسات مفاهيمية في تحليله للآيات التنزيل الحكيم.

» ومن خلال ما سبق بلور رؤيته المعاصرة، مستنداً إلى معجم مقاييس اللغة لابن فارس، معتمداً على الأسس الآتية[4]: "مسح عام لخصائص اللسان العربي بالاعتماد على المنهج اللغوي لـ (أبي علي الفارسي)، الذي جمع بين نظريتي (ابن جني وعبد القاهر الجرجاني) في الدرس اللغوي.

» الإطلاع على آخر ما توصلت إليه اللسانيات الحديثة من نتائج، وعلى رأسها أن كل الألسن الإنسانية لا تحتوي خاصية الترادف.



» الانطلاق من فرضية أن الكتاب قد تنزل علينا وأنه جاء لجيلنا، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم توفي حديثاً، مما يعني القيام بقراءة جديدة للقرآن الكريم.

» كل ما جاء في الكتاب قابل للفهم بالضرورة، ويفهم على نحو يقتضيه العقل، ورفض القول بوجود آيات في القرآن غير قابلة للفهم.

» لا يوجد تناقض بين الوحي والعقل، كما لا يوجد تناقض بين الوحي والحقيقة.

» احترام عقل القارئ أكثر من احترام عواطفه.

4. المرجع السابق ص44/45

المبحث الثاني: الأطر المرجعية والآليات المنهجية التفسيرية

يقضي القيام بأي دراسة نقدية تحليلية، لأي مفكر أو شخصية، النظر في أطره المرجعية والمعرفية التي تشكل فلسفته المعرفية في تحليل الأمور، ومن أجل ذلك نوجه هذا المبحث لمحاولة قراءة الأنساق الفكرية والمدرسية التي تُشغل فكر شحرور، ويتضح من خلال دراسة كتابه (الكتاب والقرآن) أن المهندس ينطلق من ثلاثة أسس رئيسية في تحليله، تستند إلى آليات منهجية في عملية التفسير، ولا ندعي في هذه الورقة مناقشة الباحث شحرور في كل أفكاره وفي جميع هذه الآليات فهذا لا يسمح به المقام، ولذلك نكتفي بالحديث عن آليتين في منهجه.

(ا). نفي الترادف في اللغة والقرآن العظيم كأساس منهجي في التأويل:

يعتبر هذا الأساس المنهجي الأكثر حضوراً في كتاب شحرور، ويعتمد عليها بشكل كلي، إذ تخترق منهجه أفقياً وعمودياً في تحديد معاني الألفاظ، فالقول بعدم وجود الترادف في اللغة مستندٌ إلى نظرية (أبي علي الفارسي)، والتي اعتمدها (ابن جني وعبد القاهر الجرجاني) في دراسة الشعر الجاهلي. أدى بشحرور إلى نفيه في القرآن، يقول في ذلك "التنزيل الحكيم خال من الترادف، في الألفاظ وفي التركيب، فاللوح المحفوظ غير الإمام المبين، والأولاد غير الأبناء والفؤاد لا يعني القلب، وللذكر مثل حظ الأنثيين لا تعني للذكر مثلاً حظ الأنثى"[5] على هذا الأساس، غياب الترادف في اللغة وفي النص القرآني، قعد شحرور لمعاني جديدة للكلمات فميز بين "القرآن" و"الكتاب"

* فالكتاب في منظوره، انطلاقاً من اللسان العربي "هو جمع أشياء بعضها مع بعض لإخراج معنى مفيد، أو لإخراج موضوع ذي معنى متكامل، فإذا قلنا كلمة كتاب ولم نعط لها إضافة لتوضيح الموضوع، يصبح المعنى ناقصاً، فمجموعة المواضيع التي أُوحِيَتْ إلى محمد (صلى اللّه عليه وسلم) هي مجموعة الكتب التي سميت "الكتاب" والتي تؤلف في مجموعها كل آيات المصحف، هذا الكتاب يحتوي على مواضيع رئيسية هي:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) البقرة الآية ٣، كتاب الغيب
(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)[6] كتاب العبادات والسلوك.

---

٥ . شحرور محمد، "نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي فقه المرأة (الوصية– الإرث– القوامة– التعددية– اللباس)"، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، دراسات إسلامية معاصرة (٤)، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سورية دمشق– ص ١٨٩/١٩٠.

٦ . سورة البقرة الآية ٣.

وبناءاً على هذا فالكتاب يحوي كتابين رئيسيين:

كتاب النبوة: ويشتمل على بيان حقيقة الوجود الموضوعي، ويفرق بين الحق والباطل أي الحقيقة والوهم.

كتاب الرسالة: ويشتمل على قواعد السلوك الإنساني الواعي، ويفرق بين الحلال والحرام."7

ومنطلقه في هذا ما جاء في معجم مقاييس اللغة يقول (ابن فارس) في مادة كتب "الكاف والتاء والباء أصلٌ صحيح واحد يدلُّ على جمع شيءٍ إلى شيء"8 في حين أن لفظ "كتب" في المعاجم الأخرى ورد "عامًّا في كلِّ كِتاب ويُؤَنَّث على نِيّةِ الصَّحيفة" 9 وتفسير كلمة "كتاب" على النحو الذي تقدم عند شحرور يخالفه القرآن الكريم، فقد ورد لفظ "الكتاب" في القرآن الكريم لأحد عشر معنى تقريباً.10 في كل منها له دلالته التي تفهم من سياق الآية.

* أما لفظ القرآن، عند شحرور، فلا يقصد منه "القرآن العظيم" كما هو متعارف عليه عند أهل التفسير، إنما هو جزء من الكتاب. والذي يبدو أن المهندس شحرور في قراءته هذه، تغافل عن معاني معجمية لبعض الألفاظ، وحملها معاني أخرى؟ ثم في تمييزه بين "الكتاب" و"القرآن" أخذ بالترادف المطلق، في حين أن الترادف في اللغة ترادف تقريبي. ولهذا فإن علماء القرآن ناقشوا هذه المسألة من جهة اتفاق واختلاف لفظي "الكتاب والقرآن" من ذلك ما أورده الزركشي قائلاً "الكتاب القرآن وقيل بل متغايران وَرَدَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى عن الْجِنِّ (إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا) وقال في مَوْضِعٍ آخَرَ (إنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى) فَدَلَّ على تَرَادُفِهِمَا وَفِيهِ الْبَيَانُ لِجَمِيعِ الْأَحْكَامِ قال اللَّهُ تَعَالَى (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ)"11

---

7 . الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، مرجع سابق، ص ٥١/٥٥.

8 . أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا "معجم مقاييس اللغة"، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، طبعة ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، بدون رقم، دار الفكر، الجزء ٥ ص ١٥٨

9 . محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني أبو الفيض ، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، "تاج العروس من جواهر القاموس"، تحقيق مجموعة من المحققين، طبعة، دار الهداية، بدون سنة، طبعة مرقونة، الجزء ٤ ص ١٠١.

10 . ورد بمعنى مرادف للقرآن في مواطن عديدة منها قوله تعالى (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ) آل عمران الآية ٢ وقوله (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ) المائدة الآية ٨٣.ورد بمعنى التوراة في قوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ) سورة البقرة الآية ٨٧، ورد بمعنى الكتابة في قوله تعالى(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ) آل عمران الآية ٤٨. ورد الكتاب بمعنى صحف إبراهيم في قوله تعالى" (فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) " النساء ٥٤. والكتاب بمعنى اللوح المحفوظ في قوله تعالى(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) " الأنعام ٣٤. والكتاب بمعنى جنس الكتب السماوية في قوله تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) الحديد: ٢٥، والكتاب بمعنى الإنجيل في قوله (قَالَ إِنِّي عبد اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً) سورة مريم الآية ٣٠، والكتاب بمعنى المكاتبة في قوله (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً) و الكتاب بمعنى جزاء الأعمال في قوله (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ) سورة مريم الآية ٤٩.

11 . بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ، سنة النشر ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م "البحر المحيط في أصول الفقه"، تحقيق، د. محمد محمد تامر،طبعة دار الكتب العلمية، لبنان– بيروت–، الجزء١، ص ٦٥٣.

هذا مع اعتبار السياق الذي يشكل منطلقاً أساسياً في تحديد معاني الكلمات، فالمعنى الحقيقي للكلمة لا يؤخذ من ذات اللفظ، وإنما يؤخذ من السياق الذي يحدد وضعية الكلمة، لهذا فإن علماء اللغة تناولوا الكلمة من جهة الوضع أولاً ثم من جهة الاستعمال في القرآن، ثم الحديث، ثم الأشعار العربية، وأخيراً وجوه المجاز، فالمعنى الأصلي في الجذر لا يطمئن إليه، حيث إن اللفظة يعطيها المعجم معاني كثيرة ولكنها تعود إلى أصل مشترك. وهو ما لم ينتبه إليه المهندس محمد شحرور ولذلك فالقرآن عنده "ليس مناط التكليف ولا يوجد فيه أي أحكام وأوامر تكليفية فهو حق حتمي ساحق ماحق، لذا فهو مناط القدر في قانونه العام، ومناط المعرفة الإنسانية في القوانين الجزئية، ومناط المعرفة الإنسانية بالتاريخ. وموقف الإنسان من القرآن الإيمان به أو عدمه"12

واستدل بقوله تعالى (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...)13. ليصل شحرور إلى أنه من الخطأ المنهجي الظن بأن الكتاب الوارد في قوله تعالى: (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)14 وقوله (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...)15 هو الكتاب الموجود بين دفتي المصحف، هو المقصود بهذه الآيات كلها وبدون هذا التفريق لا يمكن وضع منهج علمي لفهم الكتاب من أحكام و قرآن وتفصيل الكتاب، ولذلك ينبغي التمييز بينها."16

غير أن ما ذهب إليه المهندس شحرور ينبغي التنبيه فيه، إضافة إلى الاعتبارات اللغوية والمعجمية، إلى ضرورة اعتبار الفارق بين لغة القرآن واللغة العربية، فدلالة المفردات القرآنية مقيدة بدلالة شرعية تقرأ في نسق القرآن الكلي "فالقرآن يختص بنظام مفاهيمي يتجاوز المفاهيم الفردية إذا أخذت منعزلة عن التركيب، فينبغي مراعاة كل مفهوم مفرد في علاقته بالمفاهيم الأخرى في النظام العام الكلي للنص، فتلك الكلمات والمفاهيم القرآنية ليست هي نفسها تلك الكلمات والمفاهيم الفردية التي كانت مستخدمة قبل الإسلام، فالقرآن أعاد استخدام تلك المفاهيم وأضفى عليها قيماً جديدة من خلال سياقها القرآني، وبإدراك هذا التحول في الاستخدام اللغوي يمكن الكشف عن الرؤية الكونية للقرآن"17

---

١٢ . الكتاب والقرآن مرجع سابق ص ١٠٥.

١٣ . سورة الكهف الآية ٢٩.

١٤ . سورة فصلت الآية ٣.

١٥ . سورة الزمر الآية ٢٣.

١٦ . الكتاب والقرآن، مرجع سابق ص ١١٥/١١٦.

١٧ . حلمي عبد الرحمن، شتاء ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، "المفاهيم والمصطلحات القرآنية: مقاربة منهجية"، مجلة إسلامية المعرفة، السنة التاسعة، العدد٣٥، ص ٧٢/٧٣.

وقد تعرض الإمام الشاطبي رحمه الله إلى هذه المسألة، فقد نبه إلى أن الكلام من حيث دلالته على المعنى يأخذ على اعتبارين:

» جهة دلالته على المعنى الأصلي
» جهة دلالته على المعنى التبعي الذي هو خادم للأصل

لذلك فإنه من الواجب، في نظر (أبي إسحاق الشاطبي)، أن ينظر في الوجه الذي تستفاد منه الأحكام، وهل يختص بجهة المعنى الأصلي أو يعم الجهتين معاً أما جهة المعنى الأصلي فلا إشكال في صحة اعتبارها في الدلالة على الأحكام بإطلاق ولا يسع فيه خلاف على حال، ومثال ذلك صيغ الأوامر والنواهي والعمومات والخصوصات وما أشبه ذلك، مجرداً من القرائن الصارفة لها عن مقتضى الوضع الأول. وأما جهة المعنى التبعي فقد وضع لها شروطاً ينبغي اعتبارها، لكي تأخذ في الدلالة على الأحكام من حيث يفهم منها معان زائدة على المعنى الأصلي.18



والخلل المنهجي الذي يلاحظ في العمل الذي قام به شحرور في الوصول إلى فروق بين المصطلحات التي اشتغل عليها، اعتماده اللغة في استنباط معاني كل الألفاظ التي تعرض لها، ولم يفرق بين اللفظ المفهوم الذي أعطاه الشرع معنى محدداً، واللفظ العادي الذي يمكن أن يستقرأ معناه من معاجم اللغة فقط، الأمر الذي أوصله إلى تأويلات أبعد ما تكون عن منطق اللغة العربية. فالألفاظ التي أعطاها القرآن معنى معيناً، أو سياقاً خاصاً بها، يجب الوقوف فيها عند ذلك المعنى والسياق ولا ينبغي الانسياق في تقمص معانيها المعجمية اللغوية وتنزيلها مهما بلغت من التكلف والزيغ19

١٨ . أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، "الموافقات في أصول الفقه"،الطبعة الأولى١٩٩٧م/١٤١٧هـ، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفان، المملكة العربية السعودية، المجلد الثاني، ص ١٠٥

19 . دة. رقية طه جابر العلواني، "قراءة في ضوابط التأويل وأبعادها المنهجية في الدراسات القرآنية المعاصرة" بيروت 11-12 شباط 2006م، بحث ألقي في ندوة دراسة التطورات الحديثة في الدراسات القرآنية المعاصرة، ص 15 www.drruqaia.com

تفريق شحرور بين الرسالة والنبوة

وبنفس المنهج فرق بين الرسالة والنبوة، مدعياً أن النبوة مربوطة بالعلوم الموضوعية والتاريخية، والرسالة مربوطة بالعلوم الاجتماعية والشرعية، أي أن "الرسالة أحكام والنبوة علوم"20 وهو ما يفنده أحد الباحثين بقوله أن ما بنى عليه شحرور دراسته يبقى دعوى عامة، "لا يميز فيها بين وجود الترادف على مستوى (المعجم)، وبين اختفائه على مستوى التركيب اللغوي فكما هو معروف يميز علماء اللغة في دلالة المفردات اللغوية بين (الدلالة المعجمية)، حيث يوجد الترادف، وبين الدلالة التركيبية التي لا ترادف فيها البتة"21

من هنا يتضح أن عدم اعتبار الاستخدام الإلهي للمفردة القرآنية قد يؤدي إلى صرف اللفظة عن حمولتها الشرعية، والخروج عن المقصد الذي يريده الشارع من وضعها، بل إن بعض الدارسين اعتبر أن "معالجة النص القرآني عبر ضوابط الاستخدام الإلهي للمفردة، وهو استخدام مميز يرقي بالمفردة إلى مستوى المصطلح، يتعارض مع ما وثقه العرب في لسانهم البلاغي ويصطدم كذلك بمرجعية الموروث، فالاستمرار في مثل هذا العمل وانجازه ليس بالأمر السهل (...) فبما أن القرآن مركب على اللغة كأداة تعبيرية، وبما أنه مركب على منهجية معرفية ضابط لكل الموضوعات التي يعالجها في كلّ واحد، فإن استخدام هذه الأداة التعبيرية (أي اللغة) يجب أن يكون بمستوى الانضباط المنهجي نفسه، بحيث تتحول المفردات من مجرد كلام إلى (مصطلحات) دقيقة، وبحيث لا تعطي المفردة أكثر من معنى واحد محدد حيثما استخدمت في الكتاب، وكيفما اختلف سياق توظيفها"22

٢). سيطرة المفاهيم المادية وإشكالية توظيف اللسانيات الحديثة في التحليل:

يستدعي شحرور في تحليله آليات تفسيرية تستقى من اللسانيات المعاصرة، وجملة من المفاهيم ذات حمولات إيديلوجية (idéologie)، تكشف عن مشارب فلسفية متعددة عند المؤلف، كما هو الأمر في حديثه عن نظرية المعرفة القرآنية الموسوم عنده {ب} "جدل الإنسان والمعرفة الإنسانية" وهي التي تقابل {ب} "النظرية المعرفة الإنعكاسية المادية التي تقول إن المعرفة الإنسانية تنطلق من الواقع المادي القائم على صراع المتناقضات الداخلي"23، وهذه النظرية

---

٢٠ . شحرور محمد المرجع السابق ص ١١٢.

٢١ . يراجع الفرّان محمد، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، "مظاهر التجديد في الخطاب الديني الإسلامي المعاصر"، ط، ٢٠٠٧م، الأولى، الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص ١٧٨/١٧٩.

٢٢. حاج حمد محمد أبو القاسم، "جدلية الغيب والإنسان والطبيعة ؛ العالمية الإسلامية الثانية " الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م،دار الهادي،بيروت لبنان، مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد، ص ٥٣.

٢٣ . الكتاب والقرآن؛ قراءة معاصرة، مرجع سابق، ص ٢٥٣.

التي تلتقي من حيث المنطق، عند شحرور، مع نظرية المعرفة القرآنية في منظوره، فقد لخصها في قدرتها على تقديم التفسير العلمي القادر على الإجابة عن تلك الأسئلة عن طريق طرح مقولة نفخة الروح من الله تعالى، و يدعي شحرور أن هذا الفهم المادي لنظرية المعرفة القرآنية يرد على أوهام ذوي الفهم المثالي للقرآن، الذين يرفضون نظرية التطور والارتقاء ويسخرون من نظرية داروين بزعم أنها غير علمية."24 وبهذا فشحرور يتبنى نظرية داروين، إذ أرجع وجود الإنسان إلى التطور الذي استمر ملايين السنين (البث) حيث أن المخلوقات الحية بث بعضها من بعض طبقاً للقانون الأول للجدل، وتكيفت مع الطبيعة وبعضها من بعض طبقاً للقانون الثاني للجدل."25

هذه الأطر المرجعية في التأسيس المعرفي ستتضح في تحليله للآيات القرآنية التي لها علاقة بنشأة الإنسان والتي تبحث في التواجد الإنساني في الأرض، ونسوق مثالاً لذلك مسألة الهبوط الآدمي من الجنة، فالمهندس يقول بأن فعل (هبط) القرآني لا علاقة له بهذا الأمر، إذ فعل هبط عنده يحيل إلى الانتقال المرحلي، أي انتقال من مرحلة إلى أخرى، ويستبعد أن تكون له علاقة بالنزول والهبوط الآدمي من الجنة، يقول، يجب علينا أن نفهم قوله تعالى (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)26 على أنه انتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى، وليس المعنى "انزلوا منها" ونحن نقول: إن الله أنزل ونزل القرآن ولا نقول أهبط وهبط القرآن، وقد استعمل الكتاب فعل هبط في مجال الانتقال المكاني أو الكيفي...

في مجال الانتقال المكاني أي من مكان إلى آخر على الأرض في قوله تعالى (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٤٨)27 وقوله تعالى (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ)28 هنا يجب أن نفهم اهبطوا منها انتقال كيفي أو مكاني أو الأثنين معاً، وكل ذلك حصل على الأرض وجنة الخلد ليس لها أية علاقة بذلك لأنها أصلاً لم توجد بعد."29

---

٢٤ . الكتاب والقرآن مرجع سابق ص ٢٥٣

٢٥ . المرجع السابق ص ٢٩٠.

٢٦ . سورة البقرة الآية ٣٨

٢٧ . سورة هود الآية ٤٨

٢٨ . سورة البقرة الآية: ٦١.

٢٩ . شحرور محمد المرجع السابق ص ٢٩٠. ثم أنه هنا يحاكم زمان القرآن بزمان البشر دون اعتبار للاختلاف الموجود بينهما.

لكن البحث المعجمي في دلالة "هبط" تحيل على "النزول والانحدار"30 وبهذا فشحرور يخالف منهجه السابق القائم على الاستقراء التام للمعاجم اللغوية، ثم إن بعض المفسرين رجحوا هذا المعنى اللغوي فقد وأورد الزمخشري في تفسيره في قوله تعالى (اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ) قال "«اهبُطوا» بالضم: أي انحدروا إليه من التيه. يقال: هبط الوادي إذا نزل به، وهبط منه، إذا خرج."31 وهو ما تكرر عنه في عدد من المفاهيم إذ يعطيها الباحث دلالات يدعي أنها مستقاة من اللسان العربي لكن العودة للمعاجم العربية تؤكد لنا عكس ذلك.

توظيف اللسانيات الحديثة

أما فيما يخص توظيفه للآليات اللسانية المعاصرة، فالمنهج البنيوي32 يبدو واضحاً لديه في خطواته التحليلية للنص القرآني، وفي هذا الصدد ينبغي الإشارة إلى أن المهندس شحرور عمل على تكييف المنهج البنيوي في أسسه وآلياته بما يخدم منهجه، ولذلك فإنه لم يوظف هذا الأخير بشكل استنساخي وإنما استفاد من الخطوات المنهجية التي تعتمدها اللسانيات الحديثة، ومن مقوماتها "رفض منهج التأمل الباطني (Introspection) والذي يعني ملاحظة ما يجري في الشعور من خبرات حسية أو عقلية أو انفعالية، وبالتالي العمل على وصفها وتحليلها وتأويلها."33وهذا يتقرر عند شحرور في مواطن عدة من دراساته، يقول: "وندعو إلى رفض الاعتراف بالمعرفة الإشراقية الإلهامية الخاصة بأهل العرفان وحدهم أو من يسمون (بأهل الكشف) أو (أهل الله)"34.

---

٣٠ . انظر مادة (هبط) في ففي "مختار الصحاح" ورد فيها «هَبَطَ نزل والهبوط بالفتح الحدُور»، وعند "مقاييس اللغة" جاء فيها «هبط: الهاء والباء والطاء: كلمةٌ تدلُّ على انحدار. وهَبَط هُبوطاً. والهَبُوط: الحَدور»، وفي "لسان العرب" لابن منظور المجلد السابع، دار صباد بيروت، فصل الهاء، جاء «(هبط) الهُبُوطُ نَقِيضُ الصُّعُود»، وفي "المعجم الوسيط "«هبط هبوطا نزل وانحدر».

٣١ . أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" بدون سنة، طبعة دار الفكر، بيروت، الجزء الأول، ص ٢٨٥.

٣٢ . يتطابق تطبيق الدكتور شحرور للمنهج البنيوي، مع الغايات الفلسفية المصاحبة لظهور هذا الإتجاه النقدي في الدراسات الأدبية، إذ ظهور البنيوية (ولعلها ما زالت) إنما المراد منها أن تشكل منهجية لها إيحاءاتها الأيديولوجية بما أنها تسعى لأن تكون منهجية شاملة توحد جميع العلوم في نظام إيماني جديد من شأنه أن يفسر علميا الظواهر الإنسانية كافة، علمية كانت أو غير علمية. من هنا كان للبنيوية أن ترتكز مرتكزاً معرفيا (ابستيمولوجيا). فاستحوذت علاقة الذات الإنسانية بلغتها وبالكون من حولها على اهتمام الطرح البنيوي في عموم مجالات المعرفة: الفيزياء، والرياضيات، والأنتروبولوجيا، وعلم الاجتماع، والفلسفة والأدب. وركزت المعرفة البنيوية على كون "العالم" حقيقة واقعية يمكن للإنسان إدراكها. ولذلك توجهت البنيوية توجها شمولياً ... إدماجياً يعالج العالم بأكمله بما فيه الإنسان." أنظر د. الرويلي ميجان، و د. البازغي سعد، "دليل الناقد الأدبي" الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢م، الناشر المركز الثقافي العربي بيروت، الدار البيضاء المغرب- ، ص ٦٨/٦٧.

٣٣ . عزت أحمد، "أصول علم النفس" ط. المكتب المصري، ط. مزيدة ومنقحة بدون سنة، ص ٤٢،٦٢،٦٣.

٣٤ . الكتاب والقرآن قراءة معاصرة مرجع سابق ص ٤٣.

ثم إن التمييز بين المصطلحات التي بحثها والوصول إلى ما تقرر عنده جاء من خلال البحث المادي في المعاجم بعيداً عن التأويل والبحث في المفردات في النسق (système) القرآني والعلائقي للنص. "فالمنهج البنيوي (Structuralisme) يركز أساساً على الجانب المادي والكلية والتفاعل والمدخلات والعمليات والمخرجات".

إن هذا المنهج يبحث العلاقات التفاعلية بين عناصر النسق (système) ثم يجزئها ثم يحلل ثم يركب، ويفعل هذا دون أن يفكر في ربط النص أو الخطاب اللغوي بصاحبه أو إطاره الزمكاني أو الظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أنتجته، فقراءة النصوص إذن قراءة متوالية محايثة (immanente) وليست تأويلية.

كما أنه من ركائز هذا المنهج كذلك الانطلاق من ضرورة "إخضاع المادة اللغوية لصرامة الدراسة العلمية من خلال إزاحة حقيقتها المعطاة في التجربة التاريخية أو المجتمعية أو التطورية" وشحرور استند إلى هذا حينما عمل إبعاد كل الدلالات والحمولات المعرفية المتعارف عليها عند علماء التفسير وأهل اللغة، لجملة من المفاهيم التي تناولها (القرآن، الكتاب، الذكر، النبوة، الرسالة، الفرقان...) ليحل مكانها دلالات أخرى تستبعد التجربة التاريخية والمجتمعية، وإن كان الهدف من الدرس اللساني هو التعامل مع النص الأدبي من الداخل وتجاوز المرجع الخارجي، واعتباره نسقاً لغوياً في سكونه وثباته.

وقد حقق هذا المنهج نجاحه في الساحتين اللسانية والأدبية، حينما انكب عليه الدارسون بشغف كبير للتسلح به واستعماله منهجاً وتصوراً في التعامل مع الظواهر الأدبية والنصية واللغوية، غير أن عملية نقل وتحويل هذا المنهج إلى الدارسات القرآنية، أدت بشحرور إلى السقوط في الخطأ المنهجي الذي أشار إليه أحد الباحثين بقوله "بلا نص ولا دلالة ثابتة لا تفسير نهائي للنص، لا تفسير مفصل أو موثوق به اللعب الحر للغة، فكل القراءات إساءة قراءات إلى آخر تلك المتاهات التي أدخلتنا فيها الحداثة الغربية ومدارسها النقدية" 35

المبحث الثالث: المالآت المعرفية والحضارية لهذه الدراسات القرآنية المعاصرة

إن هذا النقد الذي أثبت عدم قدرة هذه المناهج على تقديم قراءة سليمة تنسجم مع روح النص، يقودنا للسؤال عن المقاربة المنهجية التي يمكن بواسطتها أن نحقق قراءة قرآنية بمفهوم القرآن نفسه، ويقودنا كذلك إلى مسألة الأفق المعرفي لها ومآلاتها الحضارية على أمة الشهادة

٣٥ . حمودة عبد العزيز، ذو الحجة ١٤١٨هـ نيسان ١٩٩٨م، "المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك"، سلسلة (عالم المعرفة)، رقم ٢٣٢، ص ٣٤.

ومنها إلى الإنسانية (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)36.

فالمتأمل فيما يقدمه محمد شحرور وغيره ممن جعلوا، المدخل اللغوي في دراسة النص كأساس رئيسي، يجد أنهم تعاملوا مع النص بمنهج تتحكم فيه الآليات اللغوية أكثر من كلياته، فإعجاز القرآن إعجاز بياني ولكن إعجازه لا يكمن فقط في الآليات بل فيما يقدمه القرآن من كليات مقاصدية كونية، فالمطلوب أن تكون لدينا هندسة جامعة لنصل إلى معيارية النص التي تشكل رؤيا للكون، سعياً لتشكيل عقل معياري جامع، وبواسطة معيارية النص ننتقل من البحث في النص الشرعي إلى البحث في كلياته النصية (العقل الإنسان، الاستخلاف، الأمانة، الإصلاح، التعارف، الكرامة، الحق،...) بما يجعلنا ننتقل من مفهوم النص الشرعي إلى بناء علم النص الشرعي.

وهذا الأمر يتطلب البحث في البنية الدلالية لمفردات القرآن الكريم، إذ المدخل اللغوي يظل مطلوباً ورئيسياً، فالقرآن العظيم نزل بلسان عربي مبين يقول الحق تعالى (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)37 ولا سبيل لفهمه إلا باستيعاب خصائص اللسان العربي، مع الاستفادة من المناهج المعاصرة في مجال اللسانيات، دون الاستلاب المنهجي، بل لابد من القيام بمحاولات لتبيئة هذه المناهج وفق الخصوصيات والمعطيات الدينية والثقافية للحضارة الإسلامية. وهو الشيء الذي غاب في دراسة شحرور، "فثمة انسجام بين اللسانيات والبحث الدلالي في القرآن الكريم من زاوية اعتماد الدليل اللغوي المادي المحسوس، لكن مسألة الوضعية لا تتوقف عند هذه الحدود في اللسانيات، فاللسانيات نشأت وتعاملت مع النصوص اللغوية ضمن المناخ العلماني، فمجال عملها كان الاستخدام الإنساني للغة. فكون النص القرآني نصاً لغوياً لا يعني تقديس اللغة وتجاوز التعامل معها بوصفها موضوعاً يخضع لشروط البحث العلمي، فاللغة وسيلة اتصال، وتقديس الرسالة لا يعني تقديس أداة الاتصال ذاتها، فثمة اتفاق بين العلماء على هذا المنظور الوظيفي للغة، وهذا يعني نفي أن تكون اللغة قيمة مطلقةً في حدّ ذاتها يسلبها طابع القداسة وسمة التعالي."38

ثم إن قراءته للمفاهيم غاب فيها البعد البنائي أو ما يعرف بالقراءة النسقية للقرآن الكريم، وهو الأمر الذي تنبه له علماء الإسلام مبكراً، وعرف بنظرية النظم يقول (الجرجاني) "ليس النظم

---

٣٦ . سورة البقرة الآية ١٤٣.

٣٧ . سورة الشعراء الآيات ١٩٢/١٩٥.

38 . الحاج عبد الرحمن، 05 نونبر 2007م، "هل يمكن تطبيق البحث اللساني في الدراسات القرآنية"، دراسات قرآنية، موقع الملتقى الفكري للإبداع،موقع محكم، ينظر تحت الوصلة الآتية: http://www.almultaka.net

سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب بعض"39، وقد أشار الإمام (الشاطبي) رحمه اللّه إلى ضرورة اعتبار الجزئي والكلي في النظر للسورة القرآنية، فيرى أن النظر في السورة له اعتباران:

» الأول من جهة تعدد قضاياها
» الثاني من جهة النظم

فلا بد من النظر في أول الكلام وآخره بحسب الاعتبار، فاعتبار جهة النظم لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميع السورة بالنظر. يقول رحمه اللّه "فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه، فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض، إلا في موطن واحد، وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه، لا بحسب مقصود المتكلم، فإذا صح له الظاهر على العربية، رجع إلى نفس الكلام"40



فكانت نظرية النظم من التنظيرات المبكرة للنظر الكلي إلى القرآن بالتركيز على الأنساق والروابط بين أجزاء النص وتراكيبه. فلا بد عند دراسة المفاهيم القرآنية من مراعاة معنيين:

– الأول هو المعنى المعجمي أو الأساس أو المفهوم الضمني للكلمة، والذي تحتفظ به في كيانها أين أخذت وفي أي سياق وضعت.

- الثاني فهو المعنى العلائقي أو السياقي للكلمة (relationa meaning)، وذلك عندما توضع الكلمة ضمن نظام خاص وتأخذ مكانها فيه مع كلمات أخرى فتشحن بكثير من العناصر الدلالية الجديدة التي تنشأ من هذه الحالة الخاصة، حتى إن السياق

٣٩ . الجرجاني عبد القاهر، ٢٠٠٤م،"دلائل الإعجاز"، تحقيق محمود محمد شاكر، الطبعة الخامسة، مكتبة الخانجي بالقاهرة،المقدمة، ص ٤.

٤٠ . الموفقات في أصول الفقه، مرجع سابق، جزء٤ ص ٢٦٦.

الجديد ليعدل أحياناً بشكل تام المعنى الأساس للكلمة ونشهد ولادة كلمة جديدة."41

وعبر بعض الباحثين عن هذا المعنى بتسمية الأول "بالدلالة المركزية" والثانية "بالدلالة الهامشية"42. وهذه القراءة المستوعبة لهذه الأبعاد بإمكانها التأسيس لرؤية متكاملة، فأي دراسة للنص القرآني ينبغي أن تسعى إلى تقديم رؤية معرفية تؤسس للإقلاع الحضاري، بما يمكن من فهم النص في بعده الكوني.

41 21-Toshihko, Izutsu. God and Man in the Koran Ibid.p:19. نقلا عن حللي عبد الرحمن، "المفاهيم والمصطلحات القرآنية: مقاربة منهجية"، مجلة إسلامية المعرفة، السنة التاسعة، العدد 35، شتاء 1425هـ/2004م، ص 73/72.

٤٢ . أنيس إبراهيم، سنة ١٩٨٤م، "دلالة الألفاظ"، الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو مصرية، ص ١٠٦/١١٠.

خاتمة...

سعى الدكتور محمد شحرور إلى تقديم قراءة جديدة للقرآن الكريم، عن طريق إعمال المناهج الجديدة الوافدة إلى المجال التداولي العربي والإسلامي، غير أنه ومن خلال التحليل المتقدم يتضح أن المنهج الذي اعتمده الباحث وبخلفيته الفكرية والفلسفية، و بآلياته المنهجية الوظيفية، غير قادر على قراءة النص القرآني بمفهوم القراءة التي يؤسسها النص نفسه وبأبعاده المقاصدية، إذ البحث في الدلالة المعجمية للمفردة القرآنية على الشكلية الألسنية المعاصرة غير وافية بهذا الغرض، على اعتبار الاختلاف الجوهري الموجود بين النص الأدبي والنص القرآني. وهذا الاهتمام بالمفردات القرآنية هو ما كان يعرف بعلوم الوجوه والنظائر وأخذ لدى المتأخرين اسم المصطلحات أو المفاهيم القرآنية، لكن ما قدم في هذا الإطار لم يكن إلا تنسيقاً جديداً للتفاسير القرآنية، فلم يقدم جديداً غير الشك، فكانت الأزمة في تلك المقاربات منهجية كما هو الشأن في معظم مقاربات التجديد في الفكر الإسلامي، تهتم بالعناوين والشك دون الغوص في الإشكال المنهجي.

وتبقى القراءة النسقية هي الكفيلة بالوصول إلى كنه القرآن المعرفي، إذ إن اكتشاف إحكام آيات القرآن وتفصيلها يتضح أجلى وضوح من خلال الدرس البنائي للقرآن الكريم، الذي لا يفصل بين أجزائه وبين كليته، ولئن أدرك دارسو القرآن الكريم جوانب من ذلك (بعض كتابات المعهد العالمي للفكر الإسلامي)، فإن التأصيل المنهجي لهذا الجانب لا يزال ضعيفاً، ولم يستثمر كما ينبغي، هذا فضلاً عن قلة الجانب التطبيقي الذي يعتبر أساسياً في بناء المنهج واختباره، وإن الحاجة الملحة لإحياء الوعي بأهمية بنية القرآن كمدخل لإعادة القراءة، لكونها تفتح أفقاً للإبداع في فهم القرآن وتدبر معانيه، كما أن هذه الحاجة تتأكد لتفعيل مكانة القرآن في البناء المعرفي والحضاري.

* لائحة المصادر والمراجع:

١. ابن منظور، لسان العرب المجلد السابع، دار صباد بيروت، بدون طبعة، بدون سنة.

٢. الجرجاني عبد القاهر، ٢٠٠٤م، "دلائل الإعجاز"، تحقيق محمود محمد شاكر، الطبعة الخامسة، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٣. الحاج عبد الرحمن، "هل يمكن تطبيق البحث اللساني في الدراسات القرآنية"، ٠٥ نونبر ٢٠٠٧م، دراسات قرآنية، موقع الملتقى الفكري للإبداع، موقع محكم، ينظر تحت الوصلة الآتية http://www.almultaka.net

٤. الرويلي ميجان، ود.البازغي سعد، "دليل الناقد الأدبي" الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢م، الناشر، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء (المغرب)-

٥. الشريجي يوسف محمد، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، سنة ٢٠٠٧م، العدد الأول، المجلد ٢٣.

٦. الفرّان محمد، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، "مظاهر التجديد في الخطاب الديني الإسلامي المعاصر"، ط، ٢٠٠٧م، الأولى، الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر.

٧. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، "الموافقات في أصول الفقه"، الطبعة الأولى١٩٩٧م/١٤١٧هـ، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفان، المملكة العربية السعودية، المجلد الثاني.

٨. ٨. أبو القاسم جار اللّه محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، بدون سنة، طبعة دار الفكر، بيروت، الجزء الأول.

٩. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا "معجم مقاييس اللغة"، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، الطبعة ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، دار الفكر، الجزء ٥ .

١٠. أنيس إبراهيم "دلالة الألفاظ" الطبعة الخامسة ١٩٨٤م، مكتبة الأنجلو مصرية.

١١. بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، "البحر المحيط في أصول الفقه"، تحقيق، د.محمد محمد تامر، طبعة دار الكتب العلمية، سنة النشر ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، لبنان (بيروت)، الجزء ١.

١٢. حاج حمد محمد أبو القاسم، "جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، العالمية الإسلامية الثانية" الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، دار الهادي، بيروت لبنان، مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد.

١٣. حللي عبد الرحمن، "المفاهيم والمصطلحات القرآنية: مقاربة منهجية"، مجلة إسلامية المعرفة، السنة التاسعة، شتاء ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، العدد٣٥.

١٤. حمودة عبد العزيز، "المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك"، دو الحجة ١٤١٨هـ نيسان ١٩٩٨م سلسلة (عالم المعرفة)، رقم ٢٣٢

١٥. رقية طه جابر العلواني، "قراءة في ضوابط التأويل وأبعادها المنهجية في الدراسات القرآنية المعاصرة" بيروت ١١–١٢ شباط ٢٠٠٦م، بحث ألقي في ندوة دراسة التطورات الحديثة في الدراسات القرآنية المعاصرة www.drruqaia.com

١٦. شحرور محمد، "نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي فقه المرأة (الوصية، الإرث، القوامة، التعددية، اللباس)"، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، دراسات إسلامية معاصرة (٤)، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سورية / دمشق

١٧. شحرور محمد، الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ط، غير موجودة، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع.

١٨. عزت أحمد، "أصول علم النفس" المكتب المصري، ط. مزيدة ومنقحة، بدون سنة.

١٩. محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني أبو الفيض ، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، "تاج العروس من جواهر القاموس"، تحقيق مجموعة من المحققين، طبعة، دار الهداية، بدون سنة، طبعة مرقونة، الجزء ٤.

20. Toshihko, Izutsu. God and Man in the Koran Ibid.p:19–21

٢١. نقلاً عن حللي عبد الرحمن، "المفاهيم والمصطلحات القرآنية: مقاربة منهجية"، مجلة إسلامية المعرفة، السنة التاسعة، العدد ٣٥، شتاء ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

 MominounWithoutBorders

 @ Mominoun_sm

 Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com